المسلمون والحضارة الغربية

تأليف

د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي

المسلمون والحضارة الغربية

مع ملحق من ثلاث نصائح:

- النصيحة الأولى للعلماء
- النصيحة الثانية للدعاة
- النصيحة الثالثة لآل سعود

(لكل مسلم الحق في أن يترجمه كله أو يقتبس منه ما شاء، وغير مسموح بتغييره أو التعليق عليه).

وحقوق الطبع متاحة لكل مسلم، وكذا الترجمة والاقتباس
بشرط أن يكون النص كما هنا
ومن حق أي إنسان أن يلاحظ أو يرد أو يستدرك أو يضيف كتابيا للمؤلف.

وغير مأذون اختصار الكتاب أو التعليق عليه أو اجتزاء فصولٍ منه.

مكتب المؤلف (فاكس)

(٠١٢٥٥٣٣٣٠٧)

(الطبعة التمهيدية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الجاثية، الآية: ١٨]

أولا

المقدمة والتمهيد

مُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد.

فيمكن اختصار هذا الكتاب في أنه **رؤية جديدة للعالم أو نظارة جديدة ننظر بها إلى أنفسنا وإلى الحضارة الند -أي الحضارة الغربية-**، وما أسهل أن نضع نظارة مكان أخرى إذا شئنا، وهذا الكتاب ليس نتيجة نظرة سطحية عجلى، أو مجرد تشدد أو تعصب كما قد يُظن، بل هو ثمرة تفكير طويل وتأمل عميق ودراسات متأنية في التاريخ الحضاري العالمي، مع تدبر لكتاب الله ونظر في سيرة نبيه ﷺ، وقراءة طويلة في الفكر الغربي وفي الأديان المختلفة الشرقي منها والغربي، استمرت سنوات طويلة بل عقودا، وأرجو أن يتحول به المسلم من اليقين إلى حق اليقين، وذلك بالإيمان عن معرفة بأنه لا خلاص لهذه البشرية البائسة إلا بالإسلام، وأن ما عداه جري وراء السراب والغرور، فإن أكن وفقت لذلك فالفضل لله وحده، وإن أكن أخطأت فمن نفسي والشيطان والله ورسوله من ذلك بريئان، والمسلمون هم أمة التوحيد وأمة الحق والعدل يقبلون ذلك ممن كان.

وحسبي أنني ابتدأت طريقا أرجو أن يقيض الله من يتمه من المؤمنين، وكان علي لكي أخرج هذا الكتاب أن أتجاوز كثيراً من العقبات والتحديات في الطريق، ومنها:

أولاً: عقبة الفسح: وهي عقبة في غاية الصعوبة بالنسبة لي، وقد قال الموظف المسؤول -حينما قدَّمت إحدى دور النشر أحد كتبي للفسح- المشكلة ليست في المضمون وإنما هي في اسم المؤلف، فلو وضعتم اسما آخر أو مركزا بحثيا مثلا لكان الفسح بلا إشكال.

وأنا من عادتي دائما الكتابة باسمي الصريح ولا أرضى أن يوضع اسم غيري مكانه، ولم يكن أمامي إزاء هذه المعضلة إلا أحد طريقين:

أ- تقديم رشوة وهو -وإن كان أصبح معتادا في كل دائرة- لا أرضاه و لم أفعله مطلقا ولن أفعله.

ب- الطباعة بدون فسح، وهو ما اخترته لا سيما ونحن في عصر يهمّ الناس الكسب المادي وليس الالتزام بالإجراءات الروتينية، وهذا أهون علي من أن أفقأ عيني وأسير في زمرة المطبلين، وأستخدم شهادتي ومواهبي لكي أكسب رضا مَن شعارُه ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، ومنهجه "إن لم تكن عبدا فأنت عدو، وإن لم تكن مداحا فأنت متطرف".

ثانياً: العقبة المادية: فأنا كما يعلم الجميع ليس لي عمل، بل قد حرموني حتى من راتب التقاعد الذي اقتطعوه أصلا من مستحقاتي، والحمد لله الذي أغناني بالافتقار إليه، وكرمني بأن لا أمد يدي إلى المخلوقين، على أنه لو كان لدي أموال لأنفقتها على المحتاجين لا سيما من يجاهد في سبيل الله في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، ومن يطلب العلم في هذه البلاد المقدسة.

ثالثاً: العقبة الاجتماعية: فأنا ابن مجتمعٍ يغلب عليه الانغلاق وتقديس الماضي دون أن يضم إلى ذلك تقدير الجديد.

رابعا: عقبة الوقت: فأنا لم أشرع في كتابة هذا الكتاب إلا قريبا، وعليّ أن أنجزه قبل دخول الشهر الكريم، شهر الفتوحات والانتصارات والبركات والدعوات.

أضف إلى ذلك أنني أخشى أن يفاجئني الموت كل لحظة، وقد أنذرني الله بالشَّيب وقال: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف:١٨٥]، والموت عقبة كؤود لا يجوزها إلا المخفّون وما بعده من السؤال أصعب منه:

ولو أنّا إذا متنا تُركنا   لكان الموت غاية كل حيّ
ولكنا إذا متنا بُعثنا   ونسأل بعدها عن كل شيء

وعليَّ أن أنقذ نفسي ومن يسمع قولي والإنسانية الحائرة بالاهتداء بهدى الله والاستقامة على أمره، وأتحول من اليقين إلى حق اليقين بقدر

استطاعتي، وكلما قرأت لفيلسوف غربي ازددت قناعة بأن لدى المسلمين الحل الأمثل والدواء الناجع لكل أزمة إنسانية أو مشكلة اجتماعية، وواجب النصح يقتضي أن أقدم ما أعلم تاركا لغيري إتمام ما نقص مني، ولا يستوي مَن أنفق مِن قبل الفتح وقاتل مع من أنفق مِن بعدُ وقاتَل.

وأنا -ولله الحمد- لست عدواً لمن يقبل الحق ولا عبداً إلا لله وحده، وإنما أنا ناصح مشفق لكل إنسان ومستعد لمناظرة غيري بالعقل، وإقامة الحجة على المخالف في الشرق أو الغرب، وهدفي هو إيصال هذا الإنسان الحائر المسكين إلى الغفور الودود، الذي أخبرنا مصطفاه ﷺ عن رحمته حين رأى امرأة من السبي فرحت بابنها وألصقته بصدرها، فقال لأصحابه الكرام: (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قالوا: لا، قال: فالله أرحم بعباده من هذه بولدها)، ومقتضى رحمته الواسعة أن يرسل لنا رسولاً، ويترل علينا كتابا كي نتبعه ونحتكم إليه في كل خلاف، فنحن بالفطرة نحب العدل ونكره الظلم، ونحب الحق ونكره الباطل، ولكن كيف نعرف تفصيلات كل منهما بدون كتاب: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والسمة العامة لي في حياتي كلها هي الوضوح والصراحة مع كل أحد، والإسلام عندي أكبر من كل حزب أو فصيل أو فئة أو تيار، والكتاب والسنة يسعان الجميع، كما وسعا الكتيبة الخضراء (كتيبة المهاجرين والأنصار يوم الفتح، ووسعا كتائب الأعراب، وكما وسعا سعبد بن ابي وقاص وأبا محجن الثقفي).

وأنا أعلم أن بعض الناس يحب المجاملة ولا تعجبه الصراحة، ولكن هذا طبعي فليتحملني على علاتي:

ولت بمستبق أخا لا تلمّه على شعث أي الرجال المهذب؟

وكل إنسان له عيبه وربما كان هذا عيبي الذي أعلم، وما أكثر ما لا أعلم.

وأنا لست عدوًا إلا للباطل أينما كان، وصديقا للحق أينما كان، وهذه الأمة المحمدية المباركة هي أمة العدل والحق لا نظلم من ظلمنا ولا نفتري على من افترى علينا، ولا نغدر بمن غدر بنا، ولا نجحد فضائل من جحد فضائلنا، وليس ذلك سياسة براجماتية منا ولا جلبا للمصلحة ودرأ للمفسدة، بل بهذا أمرنا ديننا ونص عليه ربنا، وقد أثنى الله على من هذه الأمة خير منهم فقال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩]، وهذا شأننا لا سيما منذ أمر الخليفة الراشد الخامس المجدد عمر بن عبد العزيز رحمه الله بتذكيرنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، وخطباء الجمعة جزاهم الله خيرا يذكروننا بذلك أسبوعيا.

ومن العدل أن نقر أن الغرب أجود منا، ليس في الصناعة فقط، بل في النظام والسياسة والإدارة واحترام الشعوب ونصرة المظلوم، لكنه كشف عن عداوته المتأصلة للإسلام في وقائع محسوسة دفعت مثلي للكتابة عنه ومنها:

١. الانحياز الدائم للصهاينة.

٢. محاولات وأد أي نموذج ناجح عند المسلمين كترتيب الانقلاب بتركيا، وتقويض النمور الآسيوية.

٣. إدخال المسلمين في نفق محاربة البعبع المفتعل (الإرهاب) الذي ضخّموه حتى أنسونا غيره.

وقد قال أحد السناتورات في أمريكا -وسمعته-: "سوف تكون أمريكا سعيدة لو انقلب الأتراك على أردوغان"، ولكن مصيبتهم أن جوال أردوغان غلب دبابات الانقلابيين وطائراتهم كما اعترفت صحفهم.

ولقد أثبت ذلك الصحفي (ديفيد هيرس) كبير محرري صحيفة (الجارديان) البريطانية الذي يعيش في المنطقة ويرصد أحداثها! ولا أدري أكان حينها في تركيا أم في بيروت (فندق السان جورج)، وهكذا أطلق الغرب هذه الحملة الصليبية الماكرة على الإسلام وأبى الله إلا أن يتم نوره

ويحقق وعده الذي لا يتخلف ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٦].

ونحن لا ينقصنا المال ولكننا نبذره وننفقه في الفساد مع شدة حاجتنا إليه، وحسب ما يعلنه المسؤولون في السعودية مثلا سوف ينفقون (٦٥ مليار دولار) أي أكثر من مئتي مليار ريال على افتتاح دور للسينما! ألم يكن الأجدر إنفاق هذه المليارات في الإعداد للجهاد والقضاء على البطالة، وبناء المستشفيات والمدارس، لا سيما ونحن نعاني من تلك المشكلات لا سيما تردي الخدمات أو انعدامها في بعض المناطق، وهذه الدور سوف تبلغ عند نهاية رؤية (٢٠٣٠) أكثر من ٣٠٠ دار كما يقولون.

والواقع المؤلم يقول إن الهجوم على الصحوة في بلاد الحرمين ليس علمانية فقط، وإنما هو انتقال من العلمانية اللادينية إلى العلمانية المحاربة للدين، وإنما العلمانية اللادينية هي ألا يتدخل أهل العلم في الشؤون السياسية، ولا ينظر القضاة في كثير من القضايا، ولكنهم انتقلوا اليوم إلى الهجوم المباشر على قطعيات الاعتقاد وثوابت المجتمع، وما التطور المفاجئ في النظر إلى لعبة الورق (الكوتشينة) إلا مثال واحد على ذلك، وأنا أطالب بإصلاح الأوضاع كلها لتوافق العقيدة كما في الكتاب والسنة، ولا أطالب لا بملكية دستورية ولا بغيرها.

ونحن من عدلنا أننا نقف ضد الظلم ولو كان المظلوم كافرًا.

وقد قال ﷺ عن امرأة مظلومة، ألقى أحد المارين الظلمة ما فوق رأسها في الحبشة: (كيف تقدس أمة لا يؤخذ لضعيفها الحق من قويها وهو غير متعتع).

فانظر كيف عد الصحابة فعله ذلك أعجب ما رأوه بأرض الحبشة التي فيها أعاجيب من الحياة النباتية والمائية والحيوانية والآثار، وكيف أنه ﷺ تعاطف مع المظلومة وهي ليست مسلمة، وقال قوله العظيم هذا في حق كل أمة حتى وإن كانت كافرة، وانظر مع هذا العدل والسمو الأخلاقي، كيف

يعامل الغرب الأمم القوية اليوم والأشخاص الأقوياء، وكيف أن الأمريكان دمروا (دوسلدروف) الألمانية وألقوا القنابل على هيروشيما ونجازاكي واعتدوا على الصومال والعراق وأفغانستان وقتلوا ملايين المدنيين، اعترف كسينجر بسبعة ملايين في شبه الجزيرة الكورية وحدها، وقد أثبتت وزارة البيئة العراقية أن أمريكا تفتقر حتى إلى العدالة البيئية، فأمريكا لا تفتقر إلى العدالة السياسية والعدالة الاجتماعية والعدالة الفكرية فقط، بل إلى العدالة البيئية أيضا، بنيما تذهب صرخات المحتجين فيها بلا تجاوب.

فإذا كانت الحبارى في وكرها تشكو من ظلم الظالم -كما نقل ابن القيم- فكم من البشرية يشكون من ظلم الإدارة الأمريكية داخل أمريكا وخارجها؟.

والمسلمون سنيُّهم وبدعيُّهم يد واحدة على من سواهم، وهم فيما بينهم يتحاورون ويعتقدون الحق هذا هو ما ينبغي لهم.

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية مع شيوخ المذاهب والطرق إلى قازان، ومع ذلك للشيخ ردود ومناقشات طويلة مع مخالفيه لاسيما شيوخ الصوفية، وهؤلاء يقولون إنهم يحبون الدين ويدافعون عنه، وأقل ما في ذهابهم مع الشيخ من المصالح ألا يظلوا لقمة سائغة لأعداء الإسلام الذين يستغلون الخلافات بين المسلمين لإيقاد الفتن وتفريق الصف، هذا مع ما في اصطحابهم من حكم أخرى ليس هذا موضعها.

ونحن ليس لدينا فوبيا ضد الحق قط، بل نحن ندعو العالم كله شرقه وغربه إلى اتباع ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، ونحن أولى بموسى عليه السلام من اليهود، وأولى بعيسى عليه السلام من النصارى.

وهذا طبعا عكس المخطط الأمريكي الظالم، حيث اعتدت أمريكا على العراق وافتعلت لإسقاط بغداد تمثيلية إسقاط التمثال، وكان يحمي ساقتها قوات (بدر)، وإنما فعلت ذلك بعد حصارها المهلك الطويل، ووجدت بديلا عن أحمد الجلبي في حيدر العبادي ونوري المالكي وصحواتها المزعومة، وهي

تفصل بين أهل السنة في جزيرة العرب وإخوانهم في الأنبار، فجعلت الأجزاء الجنوبية من الأنبار تابعة لمحافظة النجف!!

ومن أوحال ذلك المستنقع استنقذها أوباما فانسحب يجر أذيال الهزيمة، ورضيت أمريكا من الغنيمة بالإياب، وانسحب معها تحالفها الذي يضم أكثر من ثلاثين دولة، ولم يعثر ضباطها في بغداد بالطبع لا على القاهرة ولا على شارع الهرم، وإن كانوا سألوا عن ذلك كثيرًا.

والسعيد من الأمريكيين الغزاة في العراق هم من خلع عنه البزة العسكرية، ولبس ثياب عجوز وعبر الحدود مشياً زاعما أنه عجوز كردية.

وظهرت (قادسية صدام حسين) في شكل جديد تولى كِبر تسويقه الإعلام السعودي لا سيما برنامج (همسات)، ولكي تدمر أمريكا ما سماه البنتاغون (المثلث السني) حشدت ضعف التحالف السابق لتحويل أكبر تجمع سني في العراق (الموصل) إلى أطلال وخراب، وقتلت وهجرت الملايين من أهل السنة في العراق.

على أن لذلك تبعات لا بد منها لكل من يطلب جنة عرضها السماوات والأرض، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ومنها:

أ- الصدع بالحق: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤].

ب- النصح للخلق: فقد كان الأنبياء الكرام ناصحين لأقوامهم كما في القرآن الكريم.

ت- الصبر على الأذى: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٢].

ث- بيع النفس لله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].

ج- اتباع الرسول ﷺ ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

ح- لزوم العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وأنا لن أسافر إلى أي بلد ولا أخاف إلا الله.

وليست القضية عنادا وصلابة رأس أو شهوة انتقام، بل هي تمسك بالثوابت، ونصح للمسلمين وحرص على اجتماع كلمتهم.

وقد بايع النبي ﷺ أصحابه ليلة العقبة على أن يقولوا الحق أينما كانوا، ولا يخافوا في الله لومة لائم، وبايعوا على النصح لكل مسلم، وقد قال نبي الله هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]، وغاية ما يفعله الأعداء هو القتل، وتلك شهادة لا أستحقها، وإن مَنَّ الله عليَّ بها فهو من كرمه وجوده المتتابع علي منذ الصغر، وإني إذ أقول هذا لأنصح كل أحد بقراءة ما كنت كتبته من قبل وهو (الموقف الشرعي من أحداث ١١ سبتمبر) والخطاب المرفق معه للرئيس آنذاك "جورج ووكر بوش"، ليرى ما الذي تغير جوهريا، لا سيما بعد أن تورطت أمريكا في الانقلاب الفاشل الذي وقع في تركيا، وانهزمت في العراق، وظهرت هزيمتها في أفغانستان للعيان، وأخزى الله عملاءها وسلط عليها العقوبات من كل جانب، وما سيأتي أعظم.

والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أمرنا إذا خُيِّر أحدنا بين دينه وضرب عنقه أن يقدّم عنقه.

والواجب علينا في هذه المرحلة هو بيان ما نرى أنه الحق للصحوة المباركة الصاعدة، ورسم الطريق القويم لها، وقد ثبت لدي باستقراء التاريخ واستشراف المستقبل أن المسلمين أفاقوا من غفلتهم ومستعدون للمواجهة، ومن الطبيعي جدا أن يتخبط المستيقظون ويختلفوا، وربما استمر ذلك طويلا ولكن العاقبة للمتقين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقد بدأت تركيا مثلا في الصعود في حين أن الغرب أخذ في الانحدار، وإن يكن أحد يستحق الرثاء لحاله فهو بعض المخدوعين من المسلمين الذين

لا يزالون يعلقون آمالهم على هذه الحضارة وأوليائها، ويرجون الخير في اتباع آراء فلاسفتها ومفكريها، ويظنون أنه لا سبيل للتقدم والرقي إلا باقتفاء سبيلها، وقد وقف المسلمون طوال تاريخهم في وجه من يريد تعكير مصدر التلقي الصافي وتشويهه بأقوال الفلاسفة، وإلى ذلك دعا كل من دعا إلى الكتاب والسنة، وأبرز تلك الوقفات تاريخيا هي ما خطه ثلاثة من علماء الإسلام، كان لهم أثر فيمن عاصرهم أو جاء بعدهم، وهم الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعاً.

والآن يجب علينا المحافظة كما حافظوا، وإن كان ما قاموا به يتطلب أمةً وليس أفرادا.

فقد وقف الإمام أحمد رحمه الله وقفة حازمة لكي لا يتعكر المنبع الصافي "الوحي" بالمصادر الملوثة، لا سيما الفلسفات الوضعية، وكان رحمه الله أبعد نظراً وأصوب رأياً من ناقديه، وبعضهم في عصره، حيث ظنوا أن المسألة أهون مما يعتقده الإمام لا سيما مطالبته المستمرة وإلحاحه الدائم بأن يأتوه بشيء من الكتاب والسنة، وذلك لعلمه أن مصدر الحق هو ذلك، وأن الضلالات والبدع إذا سمح العلماء بها تبدو أول الأمر صغيرة ثم تكبر، وتبدأ الزاوية حادة ثم تنفرج حتى يستحيل التقاء ضلعيها، وإنما بدأت البدع بتلويث المصادر الكتابية شيئا فشيئا، حتى انتهى بهم الأمر إلى صريح الإلحاد، والكفر بالتدين في أي شكل كما نرى اليوم.

واليهود -قبحهم الله- أقروا بذلك حين دخل عليهم النبي ﷺ بيت المدراش ومعه عالمهم سابقا عبدالله بن سلام رضي الله عنه، ولما رفع ابن باعوراء يده عن آية الرجم، اعتذر الأحبار بأن الرجم هو حكم الله فعلا، ولكن الزنا كثر في أشرافهم فرأوا أن يصطلحوا على ما يقيمونه على الشريف والوضيع وهو التحميم والجلد، أي أنهم قدّموا المساواة المزعومة على حكم الله، واصطلحوا

على خلاف شرع الله في حين أنه لا مجال للاجتهادات البشرية مع حكم الله.

أما إخوانهم النصارى فقد أضافوا إلى بدع اليهود بدعا أخرى، ومنها الرهبانية التي قال فيها جل شأنه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:٢٧]، ولجأوا إلى التصويت حين ينبغي الرجوع إلى كتاب الله، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، فكان أول مجمع عقده علماؤهم هو مجمع نيقية سنة ٣٢٥ جريجورية، وكان المتحكم فيه هو الامبراطور الوثني الروماني قسطنطين، وفضَّل حينها عقيدة التثليث على عقيدة التوحيد، إذ كان التثليث أقرب لوثنيته، ولم يكتف النصارى بذلك بل لعنوا القائلين بالتوحيد وحرموهم، واعتقدوا ألوهية المسيح وابتدعوا صلبه، وتكلفوا استخراج التثليث من ألفاظ مشتبهة في التوراة "الناموس"، وهكذا استنصحوا الرجال في دين الله واتبعوا أهواء البشر، معرضين عن حكم الله، فعكروا مصدر التلقي بتلك الآراء البشرية.

غير أن الله تعالى حفظ كتابه الأخير "القرآن" بنفسه، وسخر له من يدافع عنه ويحفظ له قدسيته ونقاءه، فكان منهم الإمام المبجل أحمد بن حنبل رحمه الله الذي وقف في وجه الردة الثانية كما وقف الصديق في وجه الردة الأولى.

وهكذا بقي كتاب الله محفوظا، وبقي دينه هو المرجع الوحيد للإنسانية العطشى، واقتضت رحمته تعالى بالعالمين، أن يجعل رسالة خير خلقه محمد ﷺ معصومة، وأن يظل عليها طائفة منصورة من هذه الأمة المباركة التي لا تجتمع على ضلالة قط، وسخر لها في كل قرن من الناس من يجدد الملة ويحيي ما اندرس من الدين أو نُسي، ويرد الناس عن بُنيَّات الطريق إلى السُّنة القويمة والمنهاج اللاحب.

وفي العصور الوسطى الإسلامية منّ الله على المسلمين بعبقرية فذة وعقلية جبارة ومواهب لدنية أُودِعها شيخ الإسلام ابن تيمية الذي رد على

كل أعداء الإسلام، وعلى كل من جنحت به عقلياته أو حدسه عن عقيدة السلف الصالح، وأنشأ مدرسة فكرية في الحديث والتفسير والإيمانيات، وكان مرجعا لمن جاء بعده كما قال تلميذه العلامة ابن القيم: "كلنا من بحره نغترف".

وكان ممن اغترف من هذا البحر الزخار الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي انتشرت دعوته حتى أقاصي الأرض، وكان كشيخ الإسلام ابن تيمية ناصراً للحق بعيدا عن تكفير المعيَّن، داعيا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلا بالتي هي أحسن، ولم يتكلم عن شيء دون الاطلاع عليه، حتى قيل إنه رحل إلى (قم) ليرى بعينه ما يفعله الرافضة بعد أن كان زار العراق ورأى أعمالهم، واطلع على أقوالهم من كتبهم نفسها، وقُل مثل ذلك عن عباد القبور والأضرحة، وكل من جدد ملة عمرو بن لحي، أو دين قوم نوح.

ثم شاء الله أن تغشى الأمة غاشية الحضارة الغربية الزائفة، وأن تخضع أكثر بلاد الإسلام لأولئك الصليبيين الجدد، وأن تتشعب العلوم وتكثر البدع وينتشر الهرج بين الناس، ويحكمون بالقوانين الوضعية، ويحكِّمون الأهواء البشرية، ولكن الله للمفسدين بالمرصاد، ووعده حق، ولا يزال ينشيء لهذا الدين نشأ يستعمله في طاعته إلى أن تقوم الساعة.

والله تعالى ليس في حاجة إلى البشر في شيء أبداً وإنما أنزل القرآن العظيم رحمة منه بخلقه كما قال، وقد قال لسيد ولد آدم خير الخلق أجمعين محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] وقال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ [النازعات:٤٥]، ولو قدرنا أن الله لم يخلق البخاري ومسلم ولا أحمد بن حنبل ولا ابن تيمية ولا محمد بن عبدالوهاب ولا أي مجدد أيعجز سبحانه عن الإتيان بمثلهم ممن خلق؟

ألم يقل سبحانه لأكرم جيل وأفضله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

ويقل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، ويقل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحُجُرات:١٧].

واليهود هم الذين يحسدون العرب على أن نبي آخر الزمان منهم، فكيف نكون مثلهم وندعي أن الخير محصور فينا وحدنا، ونحسد الغرب أو الجاوة أو الترك أو الأفارقة إذا كان تجديد الدين ونصرته على أيديهم؟

وكيف نحتكر الحقيقة ونحصر التوحيد فيما نظن، وما عداه شرك أوضلال أو خطأ.

فإذا وفق الله العالم أو الداعية أو الحاكم للدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالفضل له وحده وعلى من وفقه الله لذلك أن يكثر الحمد والاستغفار والطاعة.

وأنا حين أبين ما فيه هذه الحضارة من عيوب، لا أقصد أن أعاملها بالمثل وأحط من قيمتها كما حطت هي من قيمة الحضارة الإسلامية، وإنما أعدل معها وأريد أن تتوازن الصورة، وليس أن ننسب كل سيئة لنا وكل حسنة للغرب.

ونحن إذ ندعو الناس إلى الصراط المستقيم، لا ندعوهم إلى ما سماه "ديبتر سنغاس" القيم الآسيوية، بل إلى القيم الكونية التي أنزل الله على الآسيوي والغربي، وجعل فيها الهدى والخير وتقوم على التوحيد لا على الوثنية، فالحضارة الغربية حاليا هي صنم العصر الأكبر، بل هي في الحقيقة مجموعة من الأصنام المتراكمة، بعضها فلسفي وبعضها مشخّص، ويجمعها جميعا أنها معبودات وأرباب متنوعة تتراوح بين إنكار خالق الكون صراحة وبين تعطيل صفاته وتأويلها، ولكن في ثوب علمي زائف، وبصورة أخرى جديدة، وهي القاع الذي ترسبت فيه كل ضلالات الأمم القديمة، وزادت على ذلك تنظيرا وتفلسفا.

وإن شئت فقل إن الحضارة الغربية هي "هبل" الذي يليه ثلة من الأصنام كالديمقراطية وحقوق الإنسان والسلام العالمي وتحرير المرأة، والعولمة، والتجارة الحرة والمساواة .. إلخ.

ومع احتفاظ الغرب بعدوانيته كما في الحروب الصليبية، والاستعمار العسكري، أضاف إلى ذلك في الآونة الأخيرة أعمالا أخرى أوصى بها "لويس" التاسع و"ريموند لول" و"يوحنا الدمشقي" كإثارة الشبهات وتنصير المسلمين وغزوهم فكريا وسلوكيا، وزاد على ذلك استعباد سائر البشر ونهب خيرات الأمم وثرواتها بأسماء جديدة كالعولمة والاستثمار والاقتصاد الحر، وأمثال ذلك من الشعارات التي سماها "هابرماس" الألماني استعمار الحياة.

ومن سبل الاستعمار الجديد، أن المستعمرين يكلِّفون الدول المستعمَرة نفقات ما يريد المستعمرون عمله، ومن ذلك أن "دونالد ترامب" صرح أن على المكسيك أن تتكفل بنفقات بناء جداره العازل، وأن على دول النفط التكفل بنفقات إنشاء المناطق الآمنة في بلاد الشام التي يعتزم إقامتها، وما خفي أعظم.

وجمع الغرب بين نوعين من القوة: القوة الصلبة أو الخشنة، والقوة الناعمة التي تسهّلها وسائل الاتصال الحديثة، وفي ظل هذه الحضارة اختفت الأخلاق والفضيلة والقيم لتحل محلها الواجبات الوطنية أو النفعية بأي اسم، ووقعوا في تناقض شائن فاللواط مثلا عندهم مسألة شخصية يحق للإنسان أن يمارسها أو يدعها، أما قطع إشارة المرور فهو كارثة تستوجب إحالة فاعلها إلى المحكمة!

وعبارة (من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضا) هي عندهم عبارة ليست واقعية بل ينبغي محاربتها، وأن تحل محلها قاعدة "الغاية تبرر الوسيلة" كما قال "مكيافيللي"، أو أن الإنسان ما هو إلا ذئب على أخيه الإنسان فإذا لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب، كما أرشدهم "هوبز"، أو الفلسفة

البراجماتية المعاصرة، فمبادئ الغرب هي مصالحه المادية، أما التضحية بالمصالح من أجل المبادئ الأخلاقية فهو عند الغرب من فعل المتأخرين.

ولكي يكون الإنسان متقدما عند القوم، لا بد أن يكون "فاوستيا" يبيع نفسه للشيطان.

والمصيبة أن "فاوست" هذا إنما انطلق إلى العالم الإسلامي وحاربه تحت ستار الحرب على الإرهاب هذه المرة، وهي حرب فضفاضة طويلة، لا يستطيع أحد أن يحدد معالمها أو أن يتنبأ بنهاياتها، وهكذا أصبح الغرب هو دراكولا مصاص الدماء، وأصبح العالم الإسلامي هو الضحية!

والعِلم الذي يسعى إليه كل البشر لا بد عندهم أن يكون علما منفلتا، حتى ولو كان فتحا لصندوق "بندورا" الذي تخرج منه كل الأفاعي والعقارب والشرور، كما تقول أساطيرهم.

وفي غزو غير مسبوق ولأهداف متسترة وضعت الحضارة الغربية رجلا على القمر، ولكنها عجزت عن وضع إنسان في أسرة مستقرة أو في مجتمع آمن، ومن علامات التقدم في هذه الحضارة أن تتحول الجريمة من فردية كحال المجتمعات البدائية، إلى جماعية تقوم بها عصابات منظمة، أما كثرة العانسات وأبناء السفاح فهي عندهم ضريبة التحضّر التي لا بد من دفعها، وليس ذلك عندهم بغريب، وإنما الغريب أن يتحضر شعب دون دفعها!

وهذه الحضارة لإنسانيتها وديمقراطيتها! ترعى أطفال السفاح، وتنشئ لهم المحاضن، دون التفكير لماذا كثروا أصلا.

واستعباد الآلة "الماكينة" للبشر لا يسبب لهم مشكلة، فهؤلاء العبيد الآليون أو عبيد التكنولوجيا هم عمال يتقاضون مرتبات ويحق لهم الترفيه واللهو، وهذا هو المهم.

وبمقتضى الديمقراطية يحدد الأكثرون المعايير اللازمة لما يجب على الحكومة فعله أو تركه، وبمقتضى حقوق الإنسان والقوانين الغربية يحق للابن أو الابنة أن يشكو أحد الوالدين أو كليهما للبوليس!

وبمقتضى الحضارة الوضعية يجوز اعتقال أي مسلم على أنه إرهابي محتمل، أما من يرتكب فاحشة قوم لوط فهو لم يخرج عن القانون!.

وإذا كان من حق أي إنسان أن يهرب من الأرض القفر "اليباب" – على حد تعبير "إليوت"– وأن يتقي انتحار الغربيين كما قال "أوبنهايم"، وأن يجتنب "موت الغرب" –الذي تحدث عنه "بوكانين"– فإن على الإنسان المسلم أن يوقن بأن ما صرح به طه حسين وتبعه كثيرون –وهو أن نأخذ الحضارة الغربية حلوها ومرها– زعمٌ باطل، وغير علمي وغير إنساني، وهو قبل ذلك كله غير شرعي.

فالإسلام يعلّمنا أن ننتقي ونختار لا أن نأخذ كل شيء ويربينا على العقل والحكمة وليس على التطفل والاستجداء.

وقد جرب المغرورون مثل هذه النصائح غير الثمينة، وعرّوا نساءهم وأضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات، ونبذوا دينهم وشربوا الخمور وتعاطوا المخدرات وتعاملوا بالربا، وبعضهم ألغى الحروف العربية، وألغى الشريعة الإسلامية، ورطن هؤلاء بلغة الأجانب، وسموا أبناءهم وبناقم بأسماء غربية، وعمروا الملاهي وانصرفوا عن المساجد فماذا جنى أولئك؟ وأي طائرة لا تطير إلا إذا كان قبطانها يرطن باللغة الإنجليزية مثلا؟ وأي مصنع يشترط لكي يعمل أن يكون الخبير أشقر الشعر؟ وأي قناة تصر على أن تكون المذيعة أو المراسلة متبرجة؟ أم أنه لا بد من دخول جحر الضب!

خذ مثالا محسوسا لذلك: ألم يكن التركي يأتينا أيام الجهاد والفتوحات باشا أو واليا نسمع له ونطيع، وكنا معجبين به جداً إلى حد أننا سمينا أبناءنا "تركي"، ثم أصبح يأتينا أيام العلمانية والجمهورية التركية الحديثة طباخا أو حلاقا أو عاملا في ورشة؟

وبمن يفتخر التركي اليوم، أبمحمد الفاتح أم بكمال أتاتورك؟ ولماذا قفزت تركيا هذه القفزة الهائلة من دولة مستضعفة، إلى أن تكون الثانية في (حلف الناتو) من حيث القوة العسكرية، وأن تصنع الطائرات والدبابات!

وأن يتضاعف دخل الفرد التركي نحو أربعة أضعاف، ألا يدل هذا على الرجوع التدريجي للإسلام؟

ثم انظر إلى من يسمى الصديق التاريخي والحليف الاستراتيجي "دونالد ترامب" هل صرح بمنع تنظيم بعينه أم منع المسلمين كلهم من دخول أمريكا؟ وانظر إلى الصور المسيئة للرسول ﷺ التي نشرتها مجلات وصحف، منها الكاثوليكي ومنها البروتستانتي ومنها الإسرائيلي، أكانت صورة لبن لادن أو لأبي بكر البغدادي؟ وكيف جرت مكافأة الرئيس "أولاند" بأن يحضر لأول مرة في التاريخ، مؤتمر القمة الخليجية في الرياض ودون أن يعتذر عن الصور طبعاً.

وانظر إلى الغرب المتحضر كيف أغرق المهاجرين إليه في البحر الأبيض، وكيف يعلن قولاً أنه يؤيد حكومة الوفاق الوطني، ويقاتل في الوقت نفسه مع "حفتر"؟!.

وتأمل في تعبير "أوباما (إرهابي محتمل)، ألا ينطبق ذلك علي وعليك وعلى كل مسلم؟

وانظر كيف نبادر نحن -بل علماؤنا- إلى استنكار ما يقع في باريس وبروكسل وفلوريدا قبل أن يبدأوا هم في التحقيق؟ بينما لا تسمع نأمة لإنكار ما يفعله اليهود في المسجد الأقصى وهو أقرب إلينا على الأقل؟

وانظر كيف رفض السلطان عبد الحميد الثاني إغراءات "هرتزل" وكيف قدّم العرب مبادرة مجانية لليهود موافقة لقرار التقسيم الذي رفضناه سابقا.

وانظر من الذي رضي أن يكون جنديا تحت قيادة "اللنبي" ومعولاً في يد "لورانس" لتدمير سكة الحديد التي تربط بين المدينة النبوية واسطنبول؟

ولماذا لا تعيدها الدويلات التي أنشأوها بعد إعدام الرجل المريض؟ نعم السكة نفسها لا وجود لها، ولكن أليس مكانها باقيا وقد أراد العثمانيون مدها إلى مكة بل إلى صنعاء ووضعوا خططا لذلك.